سيجارة برائحة الموتى

إسراء عماد

الكتاب : سيجارة برائحة الموتى (قصص قصيرة)

المؤلف : إسراء عماد

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠٢٠

رقم الإيداع : ١٠٣٩ / ٢٠٢٠

الترقيم الدولي : I.S.B.N : 978 - 977 - 493 - 356 - 1

الناشر

شمس للنشر و الإعلام

٢٧ ش الثلاثين. برج الشانزليزيه. زهراء المعادي. القاهرة

ت فاكس : ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net

حقوق الطبع والنشر محفوظة

لا يسمح بطبع أو نسخ أو تصوير أو تسجيل
أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة كانت
إلا بعد الحصول على موافقة كتابية من الناشر

شمس
للنشر والإعلام

سيجارة برائحة الموتى

قصص قصيرة

إسراء عماد

إهـــداء

إلى من علَّمني أنه هو الحياة، ففعل كل شيء من أجلي، أظن أنه مات ذات يومٍ ليُعلِّمني كيف يكون عناق الأموات... إلى روح أبي التي لا تتركني أبدًا.

إلى أمي النسيج المفقود من خيوط أحلامي، فكم مرة فتَّشتُ في ملابسي عن رائحتكِ، فكنتُ أحتاج الاقتراب أكثر من زيف الوجود الباهت.

إلى أختي "آية": ما زلتُ أفتقدكِ في جميع الأشياء.

إلى عمي الأصغر "مصطفى": ما زلتُ أحبّ الشيء الواصل بينك وبين أطراف والدي.

إلى كل من شاركني التفاصيل، إلى ما فقدته وما سوف أفقده في هذه الرحلة، إلى غُربتي على الأرض ووحدتي وفقدي وافتقاري لجميع الأشياء.

إلى غرفتي الضيقة التي تملأها الدموع والصور السوداء والألوان المعتمة والإضاءة الخافتة.

إلى الموت الذي يأخذ مني جميع الأشياء دون مقابل.

إلى الأرض التي تميل بي دائمًا، والسماء التي تكتب اسمي فوق السّحب.

إهداء إلى كل ما هو حيّ بداخلي... وإهداء آخر إليهم.

إلى "سمر عبد الله" : كما أقول دائمًا أحب بعضًا من القوالب التى وضعتِها بداخلي.

إلى "نورا حمودة" : تقبلنا الرحلة معًا كما هي ، كما تتقبلينى كما أنا.

إلى "آلاء البدري" : ستظلين بألوانكِ تمهدين لي طريقًا جديدًا، كلما توقفتُ ووجدتُ العالم معتمًا.

إلى "زينب حمدي" التي تحمل من الألم ما تحمل، وتظل تمتص أحزاني حتى ابتسم.

إلى "سارة منير" التي لا تحمل لي سوى الضحك وأشياء أخرى.

إلى "شيرين عبد الله": نتواعد دائمًا على خلق عالم حقيقي.

إلى أطفالي الذين لم أنجبهم لكنهم سيظلون صغاري إلى الأبد: "أكرم" طفلي الجميل ، "مصطفى" طفلي الطيب.

والإهداء الأهم دائمًا : إلى "إسلام شمس الدين" ، الذي لولاه لما بقيت هذه المجموعه على الأرض هنا ، وما بقيتُ أنا أحلِّق في السماء.

إسراء

نفد الوقت

النوم؟... النوم لا يجرؤ على الحضور الآن...

تنظر وهي مستلقية بجسد شبه ميت إلى الساعة ، حركة عقارب أبدية جهة اليسار، لُغز الزمن الذي لا تفهمه هي.

أنتِ الآن في العقد الثاني من العمر، مُسجاة على سريرك في غرفة خالية ساكتة تمامًا ، إذ تدق الساعة الثانية عشرة مساءً، نظرت إلى الساعة تتذكر أحلامها في العقد الأول من العمر... وكل عقارب الساعة مُتجهة جهة اليسار ، وكل عقرب يلدغها وكأنها في جبل ليس فيه سواها... نظرت إلى العقرب الأخير ، مُستنفدةً كل طاقتها من الدموع حول أحلامها الطفولية ، تتذكر منذ كانت طفلة في العاشرة من عمرها ضحكتها ونظرتها إلى الكون ، أحلامها التي كانت تحكيها لجدتها وكأنها تكتبها للقدر ليتجه

عكس اتجاهها تمامًا مع أخر دمعة.

صوتٌ عالٍ يأتي بها من حيث لا تدري : هي "أحلامك" فرَّت من مكانها ، ووضعت قدميها المُرتعشتين على الأرض، هي لا تريد أن تفقد إحساسها بالأرض كما فقدت شعورها بالوقت! أخذت تمضي في الوقت مُعلنة أسرارها ، على أن يُفيق عقلها مثلما أفاق جسدها من النوم ، فانتهت بصوت آخر يتتبع حركات قدميها بالغرفة ليقول لها : "أنتِ الآن في العقد الخامس من العمر"...

فرَّت صارخة من مكانها طاردة كل الأشباح من حولها ، وألقت بعينيها على الساعة، فعجزت قدماها المُرتعشتان عن الحركة مُعلنة نفاد وقت أحلامها!

◈ ◈ ◈

بـتـر

تلك الأكذوبة تكمن وراء باب رحِم كل أم، فكيف تأتيك الطعنة من طفلك ، أو كهلك ؟... ربما لم أستطع ذكر الأحداث كاملة، ولكن من وراء تلك الحيطان ذات اللون الأبيض والشبابيك الحديدية ، أستطيع أن أقول لكم إنى لست مجنونة، ربما هي أقدار زمنية أوحت إليها أن العمر يوم، وهي عاشته كذلك، فكيف تخضع لزمن طفلتك التي عاشت مراحل العمر في يوم؟!

عندما وُلِدت وضعتُها بين أحضاني برفق، كعصفورة تحمل ابنتها بشغف ، وكأني أمسكت بقطعة من رحمي بيدي ، العيون الواسعة والرموش الطويلة والوجه المستدير ، حقًا كانت لحظتها أشبه بالملائكة، فكيف لملاك أن يُطيل النوم بين كفيك؟ وهكذا فعلت بي، كانت ابنة يوم واحد، فكان يُزعجها نومي بمجرد ساعة واحدة، وكأنها ولدت لتشبع

من حنان عيون الأمهات فقط ، فبمجرد نومي لأول مرة بجانبها ، أيقظني أنين صوتها وآلام ثديَيَّ ببعض من حنين أبيض لها... ربما تنْزعج عندما تعلم أني أفقتُ على كابوس وليس حنين ، فوجدتها بجوارى كهلة بجسد صغير كما هو ، ولكن بشعر أبيض ورموش ربما لم تكن من البداية ، ووجه مجعد ، تلك الصفعة التي تأخذها على القلب والخد والرحم مرة واحدة ، عندما تجد طفلك ابن اليوم بشكل عجوز في السبعين ، فكيف أستطيع أن أرضعها وأسنانها مكتملة كما لو كانت شابة؟ ربما لو مشت في وقتها لاحتاجت إلى عكاز أو كرسي متحرك.

ظلَّت تلك الأفكار تزعجني ، كيف أكتم صرختها ، أو أصدق للحظة أنها طفلتي أو ينجذب صدري ناحيتها لأرضعها حنينًا ، لتلك الحياة التي رفضتها وجعلتها كهلة من ساعة واحدة ، فلا تنْزعج من فعلتي ، فأنا لم أجن بوقتها ، فكيف أجن بعدها؟!

ستصيبك كل علامات التعجب عندما تعلم أني أرضعتها في

تلك اللحظة ، "أرضعت عجوزًا في السبعين من شكلها وطفلة بنت يوم من عمرها" ، فقلت لها وقتها وكأنها تفهمني: "رفقًا بصدري فلا أستطيع أن أتحمل آلام عمر قلبك الميت تعض فيَّ ، فكيف أرضعك مرة ثانية ؟ فما أصابك وجعلك كهلة وأنتِ بجواري؟"

تحملتُ ألم رضعتها أول مرة ، وبعد ساعة زادت صرختها بالغرفة ، وما لي أن أسكتها مرة أخرى بصدر الحنان ، وكيف لرحم الأمل أن يلد ذلك الوجع؟!

عدَّت دقائق وشيء من الحنين جعلني أسكب من صدرى ما يروي جوعها في كوب ، وبعد أن فرغت هي من شرابه ماتت ممسكة بصدري ، فهل هي كهلة بالفعل أم حنين صدري لوثه الهواء فماتت بسُم الحياة؟!

في النهاية كل ما دفعني لقطع صدري بعد موتها بلحظات ، ليس بحالة جنونية تستدعي وجودي في تلك الغرفة ، ولكن لأني علمت ما لم تعلمه ابنتي ، أنها ماتت لحرمانها من الحنان الأبوي وهي داخل رحمي ، فأدركت هذا في يومها الأول في

الحياة ، فجاءتها نوبة من العجز ، والنوبة الأخيرة لأنها لم تصدق حنان صدري.

◈ ◈ ◈

ما يحق للفراشات

ما زالت تحلِّق حول الغرف ولا تبتعد... تتبع الأسوار العالية دون أن تمسَّ طرف الأشياء... لا تكف عن الدوران ليلاً أو نهارًا، ككوكبٍ أرضي يحلِّق حول نفسه في اليوم آلاف المرات... أظن أنها كانت تنتظر أشياءً جديدة... لكنها انتظرت كثيرًا ولا يحدث شيئًا، كل يوم تمر في المبتدأ بغرفة جدتي، أظن أنها كانت تنظر من خلف المنضدة للتطلع إلى ما يحدث في ثوانٍ معدودة، وهي أيضًا لا ترى من غرفة جدتي شيئًا أكثر مما مللتُ منه منذ أعوام: كرسيًّا متحركًا وامرأةً عجوزًا مستلقية على سرير حديدي، لا أنا ولا هي نعلم ماهية الكرسي، ما دمنا كل يوم في نفس المنعطف تأتي الخادمة لتطعمها وتمسح جسدها شبه الميت بمنشفة مبللة، وتغير لها حفاضاتها الخاصة... أظن أنها لم تكن حفاضات لعادات شهرية مثل حفاضاتي الشخصية، أظن أنها فوط

يومية للكبار فقط ، وكانت تغيرها مرتين أو ثلاث مرات كل يوم.

أمَّا هي فكانت تنهي التحليق من أمام غرفة جديّ عند هذه الفعلة... أظن أنها كانت تحلق بعيدًا لخوفها مرة من أن تكون مثل جديّ وينكسر جناحاها ، وتخضع للأرض في نهاية مطافها ، أو أنها كانت تبحث عن كرسي لائق بالفراشات ، فتجد نفسها أمام غرفة أمي التي تبكي وتنتحب كل ليل من حمولة جسد أبي... لا أعلم كيف تزوجته لكنها كانت تكرهه ، كنت أعلم أن الأطفال يأتون نتيجة علاقة حب ليلية بين رجل وامرأته ، أما نحن فجئنا نتيجة عملية كره متبادلة ، ربما كان الاتفاق فيها هو بتر الشهوة واقتطاب أوجاع الغربة بغربة أكثر عُريًّا ؛ غربة تنجب أطفالاً وبناتٍ وزوجاتٍ ورجالاً أيضًا ، فكيف للغربة أن تكون بوسع هذا الرحم ؟ أن تنجب خمس مرات بنفس فعلة الكراهية المتفق عليها ؟.

كانت تذهب الفراشة بعيدًا عن غرفة أمي ، عندما تهرب من

جسد أبي لتغتسل قبل أن يمر ثوانٍ على ما كانا عليه... فتبكي وتبكي الفراشات، وتأتي إلى غرفتي لتشاهدني أقطع في صور صغيرة وكبيرة، أقطع كل ما يمت للواقع بصلة وكأني أسحق ذاكرتي بالصور... لكن الفراشات كانت تعلم أنها مرسومة داخل الأعماق، محفورة بالذاكرة... تأتي بالأحلام وتقتحم الأسوار العالية، إنها باقية رغم هَرَبها من الواقع... بقية أشيائها تشهد عليها، تنظر إلى صورة لي معها لم أنزعها عن الجدران، وكأني مجبرة على الانتظار فتهرب إلى غرفتها الخالية.

رماد ووتر... كانتا تشبهان أسماءهما الغريبة عن هذا العالم، وربما تشبه طبيعتهما، كانت كلتاهما تصغُرُني بأقل من عامين، والفرق بينهما يحمل نفس المدة الزمنية التي تقع بيني وبين (رماد) التي كانت تشبه الأرض، صلبة كالطين ولينة كأجساد الموتى قاسية كلون الأرض وحانية على الأشياء مثل الماء، كانت أشبه بالحياة وأظن أنها لم تختر الموت أبدًا، حتى إن كان يشبه تفاصيلها.

أما وتر... فكانت لائقة بعازفة تهوى الموسيقى وترفق بغرفتها ما يليق بذلك.

لكن في يوم مضى لم أذكره ملأت غرفتهما الدماء... وكأن الآلة عذبتهما... أو بث فيهما الموت روحه وأخذهما إليه دون أن ينظر إليهما أحد، وترك مؤشر الدماء على الأرض ليخبر أحدًا ما لا أعلمه أن الموت باستطاعته ترك ما يحب أن يتركه.

لا نعلم أين رحلتا... ربما ملَّت إحداهما الحياة فقتلت الأخرى؟! ولكن أين جسد الاثنتين؟!... أو ربما طاب لكل منهما بيت جديد؛ بيت لا يشبه بيتنا، ولكن من أين أتت الدماء في الغرفة؟! لم أعد أفكِّر في هذا الأمر كثيرًا... كل ما يشغلني هو الفراشة الصغيرة التي تنتظر أمام هذه الغرفة أكثر وقت ممكن، كنت أظن أنها تعلم شيئًا عما حدث بالغرفة منذ أعوام، لكني لم أكترث كثيرًا لاستقطاب الحديث عمَّا هو مجهول... ما هو سرمدي إلى أبعد مدى... ولكن في هذه المرة التي تتبعتها لم تستكمل طريقها لبقية

الغُرف ، ظلت أمام غرفة رماد ووتر ، حتى أتت فراشة أخرى تحلق من بعيد ، واجتمعت الاثنتان وتلمست كلٌّ منهما جدران الغرفة ، فسقطت الفراشتان في بركة الوحل... دون أن أعلم كيف تحلق الفراشتان وتسقطان أيضًا ، أو ما علاقتهما القوية برماد ووتر ، التي تجعلهما تسقطان أمام غرفتهما حبًّا أو كرهًا... فلا فارق بين شعور الحب والكره، أكثر من فكرة تلاعب المعكوسات، مثل ما كان يفعل القدر دائمًا ، يعلمني أن كل المعكوسات متشابهات، وأكثر الفراشات لا يحق لها التحليق.

◈ ◈ ◈

نساء من العُملة

اليوم تقترفني الأفكار ، تتشعب بداخلي كبداية الشعوب ونهايتها ، كالديانات الثلاث المتشابهة رغم اختلاف أسمائها ، ترهقني وتربكني كخلايا دماغية متعصبة عليَّ ، كصخب الحياة المؤجلة والموت البعيد حد الاقتراب.

أثرياء نحن النساء... بيدي جنيه وخمسون جنيهًا ودولار ودرهم ، بيدي عملات ذكورية اقتنيتها منذ زمن بعيد ؛ أم تُوجت بها وابتليت أيضًا ، فلماذا كانت دولتي تنتج جميع العملات من الرجال والدول الأخرى أيضًا؟

قالت لي أمي: إن الرجال أهم بكثير من النساء... وكانت تمجد أمي وجود أبي كرسول في بيتها يأتي لها برسالة يومية ، يقترف من فمها العسل ويرحل ليعود في اليوم الثاني ، ويصفي منها ما تبقى من عسل ثوبها ، دون أن يعلم كيف

تنتهك هي رغم كونها أضعف من خلاياه بكثير ، لكنها كانت في نهاية كل ليل تقول لي، إن الرجال أهم بكثير من النساء!

وكانت تمجد خلاياىَ الدماغية أفكار أمي ، فأمسكت بالعملة في يدي، وقلت: جنيهٌ مذكر، جنيهة مؤنث، ولكن أين تاء التأنيث؟! مليم... مليمة، دولار... دولارة، والتاء غير لائقة أبدًا بالعملة.

ظللت طوال الليل أردِّد جميع أنواع العملات الذكورية بكل الدول فقررتُ أن أتاجر ، أن أصنع عملة خاصة ، عملة باهظة الثمن، عملة خاصة بالنساء، أظن أن من قام باختراع العملة الذكورية كان أحمق، قرَّر من خلال غروره كرجل في مجتمع ذكوري ، أن يمحو النساء من عملة رخيصة أو باهظة الثمن، فوزعت جسدي عليهم ووزعتهم عليَّ... جعلتني مصدرًا آخر للغلاء والرخص ، ارتكبت الخطايا كجنيه صحيح، أقصد جنيهة، فهي أخرى صحيحة، فبعد مقاومتي لجميع أنواع العملات المعروضة كمراسي

الأشجار بجذور وأعمدة، وزعت نفسي على الطريق مرة أخرى، فاكتشفت أنه لا يوجد عُملة تشبه الشجر ولا السماء، اكتشفت أن العملة من الرجال، لأنه لا يوجد عملة لائقة بأنثى، لا يوجد اسم لائق بأنثى رخيصة أو غالية الثمن، فعدت بوقتها وأحببت صانع العملة الذي لا يضمني إليها، وظللت أبحث عنه لأعانقه وألملم نفسي من على الطرقات، كوطن يرمِّم نفسه من جديد.

ثلاث حكايات لطفلي الصغير

كلنا مرضى... كلنا حالمون حدَّ المرضِ، اللهم إني أعوذ بالكره أن يخفق بك حُبًّا، وأعوذ بالبُعد أن يرتل إليك قُربًا، وأعوذ بالشر أن يزفر بك معصية، فأصبحت أشدو إليك بالحكايات، عجوزًا تحمل طفلها فوق الأعناق، سترة من الزمان وتسدل عليه الخير كله، حتى لا يقبع به الشر ويسكنه عجوز.

في البدء كنت أُمًّا أحب الحكايات، أُحب الثرثرة في أذن طفلي الصغير، بثلاث حكايات كل يوم قبل أن يغفو على صدري، طفلي كان يشبهني، وأظنه عندما يكبر سيحكي مثل هذه الحكايات لأطفاله، وضعته على صدري عندما بدأ الليل يسود بيتنا، وقلتُ له: سأقص عليك ثلاثَ حكايات أحفظها جيدًا، فربما تصاب بشيء من رائحتي في زمن آخر. فلا يفعل شيئًا، ويتركني أسرد حكايات لم يكن له علاقة بها.

(١)

كان في السماء ملائكة يعانق بعضهن بعضًا كل ليل، وهُنَّ بالقرب من الله، لكنهن يعانقنَّ بعضهن بعضًا كي يشعر إحداهنَّ بالدفء وتشعر الأخرى بالأمان، وبعضهن يفضي غربته في غربة الآخر، ويصبحن شيئًا واحدًا...

أمَّا أنا فكنت أغفو بمفردي كل يوم، رغم أني أبعد عن الله بسبع سماوات. الملائكة يحببن، وأنا أتلوّى كجذع شجرة اسودت أوراقه... أعلمتُ ماذا أقصد يا صغير؟

فلم يفعل طفلي شيئًا لأبدأ في حكاية ثانية...

(٢)

أتعلم يا صغيري أن الوجود والغياب لا فارق بينهما ؟... انظر إلى بيتنا يطل على البحر وتحاكيه الأمواج ، كل ليل بيتنا كان يشعر بالأُلفة، لا يشعر بالوحدة أبدًا، لا يفتقر إلى موجةٍ تحاكيه لأنها قبل أن تصمت كانت تحكي له الأخرى قصتها ، حتى اغتال البحر الأمطار فاجتمع العذب مع المالح وارتوى كل منهما بالآخر.

الأمواج تحكي لبيتنا ، والأمطار تسقي البحر ، ولا أحد منهم يفتقر إلى شيء ، ولا أحد من الأصل كان يشعر بالوجود والغياب ، فكل منهم يشبه الآخر... أنا فقط يا صغيري كنت أفتقر إلى من أحدثه في الصباح ويرويني في المساء!

أتعجبك الحكاية؟

لم يقل شيئًا... وتركني أستكمل الحكايات.

(٣)

أمَّا عن حكايتي الأصلية يا صغيري فهي أنت...

فإني طلبت من الله طفلاً صغيرًا أحكي له حكايات والده الذي لا يأتي أبدًا ، تركني أنظر إلى الملائكة والشياطين والنجوم والأمطار والبحر، أنظر إلى قطة؛ قطة صغيرة كلما احتاجت أن تقضي حاجتها كأنثى؛ كانت تثور ولا يهمها أي شيء سوى قطٍّ تلقي نفسها بداخله ، فلا شيء أكثر بؤسًا من العالم البشري الأحمق... أنا أضم قطعة بلاستكية كل ليل إلى صدري ، وأحكي لها ثلاث حكايات لا تفهم منها أيَّ شيء ، فلماذا لا يعاملني كقطة؟ قطة طلبَتْ طفلاً صغيرًا تحكي له ثلاث حكايات كل ليل.

◈ ◈ ◈

سيجارة برائحة الموتى

لا شيء مكتمل كالموت والحياة والحُب والكُره، وربما الليل والنهار... تستقبلني ملامح الأموات كلما اقتربتُ من لفافة تبغي الجديدة، كانت تأتيني مرة على شكل مُشعل سيجاريتي وأحيانًا أخرى أستقبلهم في دخان السيجارة... كانت أشكالهم كثيرة، رجالا ونساءً، عجائز وصبية، لكني كنت أتعمد أن أختلي بها في المساء، ولا أعلم هل لأستخبر الموتى عن حالهم؟ أم لأستمتع بدخان سيجاريتي بمفردي عندما يهدأ البيت من الضجيج، رغم أني لا أكترث كثيرًا لأحد؟

كنتُ أحب النظر إليها والتحديق فيها قبل أي شيء، كنت أُحدِّثها كثيرًا قبل أن أشعل فوقها القليل من ولاعتي الخاصة، كنت أُحبُّ طعم السيجارة التي أشربها كل ليل من الأرفف الخاصة بجدتي، لا أعلم إن كانت تكتنـــز كل هذه اللفافات لتدخنها وحدها؟ أم أنها تركتها لي كميراث خاص

لا أخبر به أحدًا حتى هذه اللحظة؟ كنتُ أودُّ أن تكون حيَّة ولو لخمس دقائق أخرى، لأعلم منها كيف كانت تدخن هذه اللفافات في غرفتها العتيقة، فهل هي كانت تصطحب معها الموتى مثلي وتجلس بمفردها معهم؟ أم أنني تحضرني صور الموتى، لأني أتذكر وجهها الخشن ويدها المقطعة، قبل أن تنجلب إلى المدافن الخاصة بعائلتنا؟

كانت تشبه كل الحماقات، وجه مجعد شاحب وعينان باهتتان كمساء معتم لا يضيء أبدًا، وظَهْر أحدب كدمية ملتوية حول ذاتها... تذكرتُ وجهها كثيرًا... ولكن اليوم قبل أن أشعل السيجارة الخامسة ذهبت إلى شقتنا في الدور العلوي، لأخبر أمي أني سأقيم إلى الأبد في شقة جدتي... فصمتت وكأني ارتكبت شيئًا لا يرضي الإله، انزعجتْ وكأني أخبرها بأني سأموت غدًا، كأنها تستقبل خبر موتي في صمت طويل... أتعلَم النظرة التي تشعرك بأنك ستذهب إلى العدم؟ أو أنك سترحل لفضاء آخر فيخافك أهل الأرض؟

ظلَّتْ تنظر هكذا، ثم قالت لي كلمات متقطعة بخوف:

– جدتكِ قتلت نفسها بهاجس الدماء من شقتها العتيقة... وأنا أخشى عليكِ أن تُصابي بهاجس جدتك من جديد.

لكني أخبرتُها أني أحب مصاحبة الموت، لذلك هو ينفرني لكني أحبه وأودُّ العيش معه.

أخذت كل ملابسي ومتعلقاتي وألقيتُ بها في غرفة جدتي... كانت فيها لوحة كبيرة بجانب الأرفف الخاصة بالسجائر، شدت انتباهي وأنا أسحب سيجارتي اليومية، لوحة لا أعلم أي حبر كُتبت به، لكنها مرسومٌ عليها بلون أحمر داكن، أوجهٌ مثل التي تأتيني عندما أشعل سيجارتي، سبعة أوجه بجوارها صورة لشابة صغيرة لا تتجاوز العشرين بكثير... أعلم من أمي منذ زمن بعيد أنها بمستشفى الأمراض النفسية والعصبية... بعد مقتل والدها كنت أتعجب من أن القتل يؤدي بها للجنون. لكن أمي أخبرتني أنها الوحيدة التي تعلم من القاتل، وأن جدتي اتهمتها هي بقتله.

فكَّرتُ لمدة دقائق، وعدتُ مرة ثانية إلى أمي قبل أن أشعل

سيجاريتي... فقُلت لها: أين المستشفى؟ فتعجبتْ وظنت أن اللعنة قد أصابتني قبل أن أتم ساعة واحدة في بيت جدتي، فقالت لي : أي مستشفى ؟! فقُلت لها: المستشفى التي وضعت بها عمتي، فأخبرتني أين وضعها القدر منذ أعوام كثيرة.

دون تفكير ذهبتُ إلى المستشفى، سألت عن اسمها والطبيب المعالج وحالتها... لكني لا أسمع شيئًا يشجع للدخول إليها. أمي تقول: مختلة وقاتلة، وجدتي أيضًا كانت تقول كذلك. الطبيب المعالج ومن يعالجونها يقولون : لم يتبقَ لديها من العقل شيء ، ولا تخبر أحدًا بكلماتٍ أكثر من "سجائر برائحة الموتى"... لكني دخلت إليها في وقتها ، صدمت بوجه غير الذي وجدته بالصورة الملقاة على الحائط، وجه شاحب وعيون ربما أوسع من دائرة الحياة... أخبرتني الممرضة أنها لا تتحدث منذ أن أتت هنا، إلا بـــ"سيجارة برائحة الموتى" ، وكل الممرضات والأطباء الذين تابعوا حالتها ، كانوا يبلغون من يتسلم منهم حالتها بأنها لا

تتحدث ولا تنام إلا بجوار شباك معتم، لذلك غرفتها دائمًا معتمة... اتهمها ضابط الشرطة عندما اتهمتها أمها بقتل أبيها، وأخذتها الشرطة فاتهمها الضابط المحقق بالجنون، لأنه علم منها ما لا يستوعبه الأطفال والكبار، علم منها ما لا يستوعبه الملائكة والشياطين... سألتُها : ما الذي علمه الضابط ليلقي بها إلى هنا ليحررها من جريمة القتل، ويودي بها إلى جريمة الجنون، قالت لي الممرضة في صوت خافت: إن هذه المريضة قالت للضابط إنها قبل حادث أبيها بثلاثة أيام، قرأت مذكرات أمها المكونة من خمس صفحات... قالت له في الصفحة الأولى:

قالت أمي إنها تدخن سيجارة تبغ من نوع خاص، تبغ لا يسقيه الماء أبدًا، أنا أُحبُّ سيجاريّ برائحة الموتى، لذلك عندما قُتل والدي دون أن أعلم من قتله، أخذتُ بعضًا من دمائه لأشمَّ رائحته دومًا، ووقع على السجائر الخاصة به الكثير من الدماء... أحببت طعمها كثيرًا، كنتُ أشمُّ فيها رائحة والدي.

وقالت في الصفحة الثانية : إن أمها عند سفر أبيها قتلت أخاها الأصغر، وألقت به في مكانٍ مجهول، لأنها كانت تحنُّ إلى طعم السجائر بالدماء، وعند عودة والده كانت تُظهر حزنها وبؤسها.

وفي الصفحة الثالثة ، قالت إنها قتلت أمها واتهمت أختها بقتلها.

وفي الصفحة الرابعة قالت إنها تفكر في المتاجرة بالسجائر... قالت إنها تريد أن تطعم الفاقدين للموتى رائحتهم، إنها تود أن تجري الموت في الرئتين والوريد وتدمع به الأعين.

وفي الصفحة الخامسة كانت تودُّ قتل نفسها لتنهي المذبحة الخاصة بعائلتنا.

وعندما طلب منها الضابط إحضار هذه المذكرات أخبرته عمتُك بأنها أحرقتها لتنهي ما علمته لتتهم نفسها بأنها لا ترى شيئًا ، وفى اليوم الثاني رأت والدتها وهي تقتل أباها ، فحرَّرتها الشرطة من القتل وألقت بها إلى هنا بفعل الجنون.

عجبتُ مما سمعته، وعدتُ إلى المنْزل أتأمل أرفُف السجائر الخاصة بها، وأتأمل سيجاريّ التي تأتي بالموتى وألقي بنفسي أمام اللوحة... وأبحث عن مذكرات أخرى لجديّ، أبحث عن ورقة واحدة تشير إلى شيء لربما يأتي يوم وتنتهي سجائر جديّ العجوز وأبدأ أنا مسيرتها في القتل، أو أذهب إلى مصحة وأخبر الطبيب أني مدمن سجائر برائحة الموتى، بطعم الموتى... ليلقي بي في الغرفه المجاورة لغرفة عمتي، لكني أحببت سيجاريّ الليلية... سيجارة برائحة الموتى.

◈ ◈ ◈

رسالة من الموت

يسوع بيحبك... ربنا بيحبك

شتاء "دير القديس سمعان" الآن بين درج القاعات الكبرى لا أحد يحتفي بالذكر أكثر من العابرين ، بإمكانك بعد الثرثرة مع القديس أن تجذب ورقة صغيرة وتكتب رسالتك وتضعها جوار معصم زجاجي كي يصلي عليها أحدهم ويبلغ الرب برسالتك... ولكن الأهم في حلقات الذكر أن يطمئن قلبك بشيء ما.

ليس بيدي صليب ، وأرتدي الأسود ، أستمع لحديثهم عن يسوع والمسيح ، أدير عقلي لأعلى درج بالقاعة الكبيرة ، يسوع طفل صغير يبعد عن أمه كي يرى معالم الدير من أعلى ولا أعلم كيف تتصادم الأسماء بهذا الحد ، كنتُ أتتبعه بشكل أكبر ، أخذ يتأمل الدرج درجةً درجة ، ويحسس على

كل منها ويبتسم كثيرًا... أذهب لأستمع لحديث القسيس لحظةً وأعود لأسكب كل إدراكي مع تحركات الطفل... في لحظات أخرى وقبل أن ينتهي درس القسيس بثوانٍ، قال الطفل: توصلتُ للدرجة الأخيرة ، وضحك. ثم قال القسيس في نهاية درسه: يسوع بيحبك... ربنا بيحبك!

ولا أعلم هل هذه المقولة كانت علامة لسفك الدماء أم هي نداء؟

في لحظتها سقط الولد من أعلى الدير وسالت دماؤه ، وبقيتُ أردِّد: يسوع بيحبك... ربنا بيحبك... ثم غضضت طرفي عن الدماء وجلبت ورقتي الصغيرة وتركت رسالتي الآتية من الموت: يسوع بيحبك... ربنا بيحبك!

أظن أن الموت تركها ليسوع من قبلي.

◈ ◈ ◈

الموت يعلنني إنسانة

قبل ثوانٍ من الآن؛ وربما قبل ساعات؛ حدث ما حدث، لأقع في هذه البؤرة الصغيرة، وأظن أني لا أتذكر متى جئتُ إلى هنا، لكني أعلم كل ما قبل ذلك، أتذكره جيدًا كما أدرك ما هو الآن، أدركه كقطعة حديد مثبتة برأسي لا تجعلني قادرة على التحرك كثيرًا، لكنها تُشعرني بوجعٍ ما، وثقلها يجعلني أدركها بين اللحظة والأخرى، لذلك فقدتُ القدرة على فك السلاسل الزمنية المحيطة بي.

لكنهم قبل وقت معين أعلنوا أن الفتاة السمراء ذات الوجه المقشر والعيون السوداء التي تتجاوز الخامسة والثلاثين من عمرها قد ابتلعها القدر كعقربٍ تطاول على جميع المحاور وقتل الوقت... وأنا كنت الفتاة السمراء، أنا من تجاوزتُ العقد والعقد والعقد، كل الصراعات لا تغفر شيئًا من ضلوع القصة، فلكل شيء أربعة أركان، ربما اكتملت

أضلعي لذلك التهمني الموت معلنًا أسراره على ابتلاع مكعب مكتمل فظل يرافق نطفته ومضغته وعلقته وطفلته.

ذات يوم اكتمل ضلع طفولتي، أمي تحبني كثيرًا، تحس على وجهي كل ليل وتقص عليَّ حكاية صغيرة، ولكن أمي كانت قاسية القلب، كانت سوداء كليلٍ مُعتمٍ بعيونٍ كالحة مثل قصص الموت التي تقصها عليَّ كل ليل، لكنها كانت تحس فوق كتفي بأحلامها العالقة، تحسني يوم ملِكةً وآخر طبيبة، وفى يومٍ آخر يأتي والدي ليقتل جميع الحكايات ويحس فوق كتفي ويقول: "مهندسة".

كنتُ أبتسمُ كثيرًا ولا أكترث لمثل هذه الأشياء، وكان من المتوقع أن أبتسم لأحلامهم الصغيرة بي.

مرَّ يومٌ آخر، وعامٌ يأكل العام الآخر ليربح ذاته ويكبرني عامًا ليكتمل الضلع الآخر، ربما صبية تتجاوز العقد بنصف عقد ما زال كل منهم يمر ويحس عليَّ بجميع أحلامه، وأنا ما زلت أبتسم... يعانقني والدي كل صباح ويقول ستدير جميع أعمالي، وترشف أمي الحزن من فوق كتفي كل ليل

وتقول : طبيبة وملكة متوجة كثمرة صغيرة ، أظنك ستحافظين على ثمارك... لم أستوعب وقتها ماذا كانت تريد أن تخبرني عن ما تعلمه بالثمرة التي تتوجني!

ابتلعتُ أحلامهم في كفي لأطيرهم كعصافير صغار لا أحبهم برأسي أبدًا ، أبتسمُ لهم من بعيد وهم يحلقون حولي ولا أنفذ شيئًا من رغباتهم أبدًا.

الآن عليَّ أن أكمل الضلعين ، علقت ثمارها على جانب وبحثت عن جذوري وساقي ، هكذا ابتلعت حبوب غربتي عنهم بالتبسم قليلاً حتى وجدت الضلع، وضعته ساقًا يثبت ثماري قبل أن تتطاير بين الخريف وتسقط في الربيع... وبقيت ألوذ بالأرض، ففردت جذوري لأعلن عن شيء ما ثماري سقطت في بركة الوحل فلا أخشى شيئًا ، ضلوعي مكتملة.

جاء من يطعن بسلاحه جميع ثماري وتركني عارية في بركة من الوحل كنت أبحث فيها عن ثماري التي لا أعلم شيئًا عنها وعن أحلامي التي لم أكتبها أبدًا ، فقط كان يحثون

عليها المارَّة، فأخذني الموت، فأدرك الجميع أنني لم أكن ثمرة بوقتها، فسقطت الورود في البركة الصغيرة لتعلن من الموت إنسانة أخرى دون ثمار...

فهل من الممكن أن يكتبني الموت باسمي؟

◈ ◈ ◈

منتصف القلب

هناك مشاهد لا نستطيع إخفاءها من الذاكرة، أو بالأحرىٰ نزيلها من القلب ونمضي خلفها... لماذا لا نصاب بمرض الزهايمر حتى نصافح قلبًا جديدًا؟ قلبًا نسي ما به من ثقوب ومرَّ فوقه بضحكةٍ ساخرةٍ؟ قلبًا لا يهوى في الماضي شيئًا وكلُّ ما يؤرّقه أن يبني حاضره؟

لكنني لا أظن أن ما يصيب الإنسان من "الزهايمر" في عقله يمنحه قلبًا جديدًا يرافقه حياته المتوحدة كطفلٍ وليدٍ، ففي قلبي قِطعٌ صغيرةٌ من الحب لا تتصل أبدًا، كنت أقول لأمّي لماذا لا تكتمل قصصي الصغيرة في الحُب ، فتقول: "إن اكتمل القلب استوصل الحب نفسه واستقام وصلح فتكتمل القصة".

بكيت بوقتها وعدت لقلبي لأصل كلّ قطعةٍ به بالأخرى، ولم أجد قطعةً منتصف قلبي. التويت داخل أعناق القصص حتى ألتقى بها فعدت إلى أمّي وقلت لها إني أحبّ القصص، لكنّني أكره القصص الناقصة، أحب بداية القصّة وأتخيّل نهايتها، وأظلّ عالقةً بمنتصفها، بكيت وقلت لها: "منتصفها المفقود يا أمّي".

وها أنا فقدت ما أملك من عقلٍ، والأجزاء التي تحمل الأشياء الجميلة بالقلب فارقتني ولم يبق به سوى ثقوبٍ، ثقوبٌ تؤرقني وتدفعني إلى الهزيمة... فكيف وأنا لم أتجاوز العشرين أُصاب بمرض "الزهايمر"؟!... قال الطبيب إنه لم يكن "الزهايمر" ما لدي من همٍّ في سنّي، إنه مرض النسيان، فكيف أتذكّر أشياءً تجعلني أكتب القصص مرّةً ثانيةً؟! أو كيف أسرد قصّتي التي دفعت عقلي إلى الشّتات كعجوزٍ استعصى عليها تذكّر اسمها ومن أين هي؟

لكنني الآن ببدايةٍ جديدةٍ أستطيع تخيّل من أنا بعقل طفلٍ وليدٍ، أتت به أُمه لتبعده عمَّا يجعله يكبر بشكلٍ خطأ.

اسمي... اسمييييي! لن أذكره، أظن أنه لا شيء يربط قصّتي الجديدة باسمٍ معينٍ ، فهناك أشخاصٌ لا نعلم لهم أسماء لكنهم يمتلكون قصصًا ثريةً ومحكمةً ، فدعنا من فكرة الأسماء حتى لا يرتبك عقلي مرةً ثانيةً.

أصابني الجنون! الجنون هو أن أكون عاقلةً في هذا العالم ، كنتُ أمرُّ كلَّ ليلةٍ على أسطح الجيران ، كنت أمتلك القدرة على أن أتسلق بغير مساعدةٍ من أحد ، أرتبك لحظاتٍ من أن يعلم أحدٌ أنّى أتتبّعه ، لكنني كنت أتتبعهم جميعًا لأبني القصص... كانت تشغلني دائمًا أشكال البنايات فتتبّعت بيتًا يقام قبالة بيتنا ، تتبّعت أساسه ونوع الحديد الداخل في بنائه وكم شيكارة أسمنت اُستخدمت لتشييده ، وهكذا الرّمل والزلط والطوب. كنت أحسُّ البنايات أكثر القصص اكتمالاً ، ولكنّه دائمًا ما يبدأ بناؤه من أسفل إلى أعلى ، أمّا أنا ، فكنت آخذ بنايات قصصي من أسطح الجيران. كان جارنا الأسود الشاب ثلاثينيّ العمر يغتصب جارتنا كلّ نهارٍ عندما يذهب زوجها للعمل. نعم قلت

يغتصب... لكنّها كانت راضيةً ، راضيةً تمامًا ومبتسمة ، لكنّي كنت طفلةً أظن أن كل ما يتطلّب عري الجسد هو الاغتصاب ، لم أكن عاقلةً بالقدر الّذي يجعلني أتفهّم العمليّات الفسيولوجيّة بين الرجل والمرأة.

أمرُّ خلف الأسطح مرّةً ثانيةً فأجد طفلاً صغيرًا يصرخ كل ليلة ، كان يتذكّر كم مرةٍ ضربته أمه. وأظل كل ليلةٍ أمرُّ وأمرُّ وأمر...

لكنني كلما مررت إلى قلبي وأغلقت الثقوب لتكتمل قصتي مع الحب ،؛ أتعثَّر... فأين ذهبت القطعة المفقودة منه؟

أول طفلة للشيطان

سرعان ما نبكي لنسرد قصتنا من البداية... وربما لنتلو قصصًا جديدة تجعلنا نلوي قصتنا في الفراغ... أو لنخرج من واقع قصتنا المؤلمة بقصة أكثر سخطًا من هذه.

في عالمه الضيق كان يسرد أفعاله واحدةً وراء واحدة ، فضمها إلى صدره حين وجدها صغيرة تفر من عينه كنبتة ، لا تعلم شيئًا سوى أنها بين الحلو والمُر ، بين الأخضر واليابس... من هنا نبتت طفلته الصغيرة ، فرَّت من يده وألقت بنفسها على الطريق بين لجات الأرض والسماء... حتى سقطت في الأرض ، وهو بجوارها يلوح لها من بعيد : انتظريني... أتعلمين ، فلتسمعيني يا صغيرتي ، حواء هناك تركتها في السماء تستمع لعزف آدم لحظات ، وتنحني إلى ضلعه في لحظات أخرى... انتظرى أيتها الصغيرة... اعلمي قصتي قبل أن تفري وتبتعدي عني.

نظرت دمعة عينيه إليه مرة أخرى وكأنها ترجوه أن يعتقها ويعود بها مرة أخرى إلى عينه الصغيرة، لكنه لم يفعل، قال لها: أنا عظمتك عن خلق إله آدم جعلني ذات يوم شيطانًا دون أنثى! أتعلمين أنه لم يفكر أبدًا بلحظات وحدتي، حتى غُربتي لم يفكِّر بها أبدًا... أما أنا ففكرتُ كثيرًا في حواء، جلبتُ طينًا وماءً، ونفختُ في ضلعي كي أنبت حوائي، لكنها لم تنبت بعد.

ضحكت كثيرًا لتكراري هذه الفعلة حتى علمت أن حواء طُعنت بضلع آدم، فنظرتُ مرة ثانية إلى أعضاء جسدي الملتوية حتى لا تلوميني ذات يوم، وأعلى بصوته وألقى بنفسه على الأرض بجوارها، وقال، كنت أريد أُنثاي، كنت أتيقن أن لدي الحق مثل آدم في جذب أنثى إلى أرضي، ولكن إبليس لا بد أن يحسن صورته أمام المجتمع، فلم أجد أفضل من عيني لأنجب بهما طفلة، طفلة لائقة بسيادة مجتمع الشيطان، تكون ملكة؛ أميرة في أحيانٍ أخرى... لا أستطيع أن أجعلكِ خادمةً أبدًا، أنتِ تعلمين

أن جزيرة الشيطان صغيرة، لكنها توجد داخل خلق آدم أجمعهم، لم أصعب عليكِ الأمر أكثر من ذلك كل ما نفعله يا ابنتي الجديدة، أننا سنحسن صورة نساء الشيطان في عين نساء آدم المطعونات بضلعه، هذا فقط ما نفعله.

فرَّت الدمعة من مكانها وعادت إلى مستقرها في عينه مرة أخرى لتسقط عيناه دموعًا أكثر وأكثر... أما هي فلا تعلم إن كانت تلعن فعلة إبليس كحواء التي طعنته بسقوطها من السماء وهو يسقطها من عينه، أم تمجِّد الفكرة فتسقط دموعًا أخرى لتشاركها ليلة من ليالي إبليس؟!

◈ ◈ ◈

عمًّا فعلتُه بي الدُّمية

الجاذبية تحرِّكنا؛ يمينًا أو يسارًا، الأهم أنها أشياء خارجة عن الواقع، أشياء تشبه أحبالاً ملتصقة بأطراف دُمية صغيرة بداخلنا... حتى لو مرَّ بنا عمر بأكمله ستصبح كذلك... ضعيفة ومستلقية بداخلنا، معلقة أطرافها بالأحبال رغمًا عنها، فقط لأنها لا تمتلك شيئًا آخر... بعقلها البلاستيكيّ تتذكر كل ما جعلها كذلك، تخبئهم بمحركها الصغير لتلتزم بما يفعله المحرك بداخلها.

ذات مرة في الطريق العام كانت طفلة جذبها أحد الباعة الجائلين وشبك الحلق المعلق في أذنها بقميصه الصوف، ومرَّ بها في الشوارع بحجة أنه سيفك التشابك، ولكن انهزم الوقت وذهب الحلق ولم ينفك التشابك أبدًا... فقط لكونها دُمية.

لا أصدق عبثًا، في صباحٍ آخر ذهبت إلى المدرسة، وقفت في طابور الصباح وجرَّت قدمها الصغيرة إلى فصلها العتيق، واستحوذت على كل علامات التعجب بعقلها وتفوقت لتكون الأكثر فهمًا ولكن لا يهم، جذبها معلم التربية الدينية وراء باب الفصل بحجة تذنيبها لشيء يهين الدين... فقط يا سيدي أنها قالت قبل أن تسمع آية قرآنية {بسم الله الرحمن الرحيم} قبل أن تقول {أعوذ بالله من الشيطان الرجيم}... وفي أثناء تذنيبها التصق بظهرها الصغير وبدأ يبحث عن أنوثتها وربما يبحث عن ذكورته... أظن أنه أمسك بثديها المعدم لكونها كانت طفلة لا تتجاوز العاشرة، وأظن أيضًا أنه مرَّر شيئًا على جسدها... ومن يومها وهى تكره الحصص الصغيرة التي كانت تُدعى فصول الدين... لا يهم... دُمية!

ولا أصدق عبثًا، في مساءٍ آخر كبرت دميتنا، وكانت تمر من شارع إلى آخر، ولكن في منتصف أحد الشوارع الفارغة، قابلت شخصًا سيئًا يُخرج شيئًا منه ويبتسم لها من

بعيد لعلَّها تأتي كعصفورة تتطاير حول الحلوى مختلفة الشكل، لكنها سرقت قدمًا أخرى فوق قدميها، لتستطيع الهرب من هذا المختل... إنها دُمية!

ولا تصدق عبثًا، في ليلٍ آخر انجذبت دميتنا بأطرافها إلى العمل، استهلكها الوقت واستنْزفها الروتين وانتهت من عملها واستعطفت الطريق أن يصلها بسلام، ولكن الطريق لم يستجب في منتصف طريقها للموقف، جاء شابان من المتسولين فوق ما هو أشبه بالموتوسيكل إلى طريقها العكسي وأمسك بثديها أحدهما وكأنه يستكشف ورودها من جديد لعلها تعود لحصص الدين الصغيرة، لكنه فعل ذلك فقط ليضحك الآخر، وتنهار هي من سرعة الموتوسيكل... وكيف لا تفتك به في نفس الطريق ذات يوم... كونها دُمية!

إنهم لا يصدقون عبثًا... ومن هنا أستطيع أن أتحدث بيُسر أنها لم تكن دمية مربوطة بأحبال ومعلقة فوق مسرح صغير لتضحك المارَّة، كانت أنثى تبحث بين الشوارع عن بائع

لتسترد حلقها ، وربما على من هو أشبه برجل يمسك بيده مصحفًا صغيرًا لتسترد دينها... أقصد جسدها... وفي أحيانٍ أخرى كانت تبحث عن رجل مختل لتجلب للطريق المعتم مارة من العدم ويقتلونه، وربما كانت تبحث عن رجل فوق موتوسيكل لتقطع صدره ربما يشعر بشيء... ولكن لا يوجد شيء وهى لم تجد شيئًا.

ربما مرَّت الأحداث كحكاية صغيرة عن دُمية مرَّرتُها كوتر مشدود ليلين العزف وأتجرأ على الحديث، فيما يهتك العرض ويتحرش بالجسد ويبتلع الروح ويجعلني ألتفت حول نفسي كالمجرمين ، أربط بذراعي فوق ما أستطيع أن أمسك به من جسدي حتى لا يسلبه أحد المارَّة، أظن أن الدُّمية الصغيرة كانت تحترم جسدها أكثر مني ، أظن أننا جميعًا تعاملنا كدُمى ، ولكن كيف يتقطع ما يربط الأطراف لتنتهى دميتنا، أو لتحيا من جديد دون شيء أشبه بالقتل.

◈ ◈ ◈

حين يُحبُّ الموتى

سقاهمْ مما لم يسقِهْ لأحدٍ من قبل، وربما سقاهم ما لم يسقِ أحدًا مرتين. هنا كانوا مقسمين إلى جزئين ولا تستطيع أن تفرِّقَ جزءًا منهما عن الآخر. أحياء/ أموات ، فقط كل منهما كان يُقدِّس نفسَهُ.

في زمنهم الآخر كانوا يعلمون أن الموت يأتى بعد نوبةِ حياةٍ صغيرةٍ، نطفةً فعلقةً، شيئًا فشيئًا، حياة فموت، طفلٌ صغيرٌ يكبرُ فيعرفُ فيموتُ عارفًا ، يموتُ جهلاً لكنَّهُ في النهايةِ يظلُّ راسخًا حول الأرض كشجرةٍ تمدُّ جذورَها حيثُ لا تعلمُ وترفعُ فروعَها للمنتهى مثبتةً وكأنَّها لا يقتلها يومًا الانفصالُ. وتمدُّ الساقَ فتنفصلُ الفروعَ عن الجذورِ ، فينتهي كلُّ شيءٍ كأنه لم يكن... أما الآن فقد قسَّموا أنفسَهم إلى حزبين ، كشجرة مدَّت جذورَها في العدمِ ، وكل منهم يقدِّسُ نفسَه عن الآخر. الموتى والأحياء

يعتقدون أنهم خُلِقوا هكذا أيضًا، كل منهم اعتقد أن أنفاسَه لا تصعدُ إلى العدمِ أبدًا ، إلا فردًا واحدًا ، كان يلتزمُ التوازنَ بين الصفينِ ، كان لائقَ الهيئةِ كالأحياءِ وروحُهُ شائخةٌ كالأمواتِ ، أشيب الشعرِ كسحاب ، مجعد الوجهِ كأرضٍ ، عيناهُ مظلمتين كمحاقٍ ، يداهُ جامدتانِ كحجرٍ ؛ يلوِّحُ بهما في مقدمةِ الصفوفِ ، يناديهم جميعًا ، يريدُ أن يوقظَ الأحياءَ قبلَ الأمواتِ مرةً أخرى... ينطقُ بكلماتٍ ربما لا يفهمها سكان هذا الوطن، ويرتِّلُ أسئلتَه صارخًا في وجوههم، يقولُ لأحدِهِمْ: هل أنت كما أنت، أم لوَّثَكَ نهرُ دماءِ القاهرةِ فأصبحتَ كالموتى ؟ الموتى لا يعلمونَ شيئًا ، ولا يعيشونَ في الوقتِ، ربما لا يحزنون أبدًا وكذلك قد لا يفرحون ، وأنت كذلك ، لوَّثك متسعُ النهرِ فصبَّ دماءَ جرحِهِ في عينيك كليلٍ يَصُبُّ عتمتَه في النهارِ، ويشقُّ الحزنَ بداخِلِهِ فيحييه من جديدٍ. ألم يقُلْ لكَ ميتٌ إنه يكرهُكَ كثيرًا ولم تنطق ؟ أظنُّ أنهُ لا يفعلُ ، فلا تنتظر من نفسِ الجسدِ العفِنِ أن يقولَ "أُحِبُّكَ" ، فالموتى لا يتشعرونَ بالحبِّ

أو الكرهِ، يعيشونَ بلا روحٍ، يعيشونَ بلا حياةٍ. فاستوقفه الرجلُ، وأنا لا أعلمُ إن كان من صفوفِ الموتى أم الأحياءِ، فكلٌّ منهم كان يشبهُ الآخرَ، جميعهم كانوا يمتلكون نفس الملامح المظلمةِ كليلِ التهم نجومَه وأقمارَه والسُّحبَ، لتصبحَ السماءُ سوداءَ قاحلةً. فهكذا الأمواتُ/ الأحياءُ، والرجلُ كان بينهم ينطقُ ويقولُ له الأمواتُ "يا عزيزى" تجذبهم الأشياءُ فيعيشونَ من أجلها مرةً؛ ويموتونَ من أجلِها آلافَ المراتِ.

– ألم يكنِ الأحياءُ أمواتًا أكثرمن الأمواتِ ذاتهمْ؟ انطق إن كنتَ تريدُ أن أُصدِّقَ أن هناك فارقًا بينهما.

انزعج من معارضته وبدأ يلوِّحُ بين الصفوفِ كطفلٍ صغيرٍ يستكشفُ أنفاسَه، يستكشفُ بَصَرَهُ ويبكي، ويستكشف صوتَهُ ويصرخُ، ويستكشفُ يديهِ من جديدٍ فيضربُ بهما الأرض ويصرخُ.

– هل أنت كما أنت؟

كان يصرخُ فيهم وكأنَّهُ يصرخُ في نفسِهِ، كأنه لا يعلمُ ولا

يستطيعُ التفرقةَ بينهم. أيقظهم جميعًا بأسئلتِهِ المستفزةِ لترابِ الموتى ، وطعنَ الأحياءَ فلم تكن إفاقَتُهُمْ من أجلِ إثباتِ الذاتِ ، ولكنِ لأشياءٍ لا يعلمُهَا إلا غرورُ الموتى فقط. مغرورونَ جدًا ، يعدونَكَ في كلِّ حلمٍ أنهُمْ سيعانقونَكَ في الحلمِ الآخرِ ، فتظلّ تنتظرُ تحقيقَ وعدهم وهمْ لا يفعلونَ. يجعلونَكَ تتشبثُ بهمْ أكثرَ ، فيعدونك أحيانًا أنهم سيشاركونَكَ الواقع ، ولكنهم غرباءُ عنكَ يكذبونَ كثيرًا ، فيتحررون من الفعل لتكون ردة فعل لأفعالهم الغائبةِ. يدلِّلُونَ أرواحَهُمْ ، فماذا يأخذُ منكَ ميتٌ إذا بُعِثَتْ روحُهُ ذاتَ يومٍ ؟ تعانقُكَ وتشاركُكَ فعلَتَكَ الدنيويةَ ؟! ومن هنا التزمَ الصفوفَ ، قَدَمٌ في الصفِّ الأيمنِ والأخرى في الأيسرِ ، فهو أيضًا ما زالَ لا يعلمُ ما الفرقَ بين الأمواتِ والأحياءِ ، ولا يعلمُ كيفَ يثبِّتُ قدمَهُ في الأرض ليكونَ حيًّا ، أو كيفَ يغرسُهَا في الأرض فيصبحُ ميتًا ، فحينَ يغتالُهُ الموتُ في خيالِهِ يودُّ أن يذهبَ للحياةِ ، وحينَ يعودُ للحياةِ كانَ يحبُّ أن يتسربَ للموتِ كليلٍ يمحقُ ظلمتَهُ ليأتي النهارُ. انشقَّ في

النهايةِ كالقمرِ وبكى، وأمسك بيدِ أحدهم وقال: أحياءٌ نحن أم أمواتٌ؟

فابتسمَ له وقال: ربما أحياءٌ حينَ نحبُّ وأمواتٌ عندما ينتهي الحبُّ.

فصرخَ في وجهه مرةً أخرى وقال: هل أنت كما أنتَ؟ فأنا أشبهُ الأمواتَ والأحياءَ، فنحنُ بالقاهرةِ. فهل أنتَ كما أنت؟!.

وجهان لـ"مارسين"

هناك على الغصن اليابس العالي يجثم محدودبًا غرابٌ أسود، يرتب ويعيد ترتيب ريشه في المطر. لا أتوقع معجزةً أو حادثةً تشعل المشهد في عيني، ولا أطلب في الطقس الطائش أكثر من هذا المشهد، لكن أدع الأوراق المنقطة تسقط كما هي بغير دهشة أو حفاوة... في المشاهد الأخيرة ستتعرض دائمًا لمصادقة جميع الأشياء حتى تكتمل الصورة، وربما في اكتمالها إنجاب صورة أخرى من نفس نهجها، وربما شكلها وبشعور أكبر من فيض الذبحة التي تجعلني أكتب من فيض الحزن تعويذات ، مقطوعات موسيقية ، ترانيم... وربما يكون المدد في الثقب البعيد المنبعث من وجهي مارسين غراب أسود...المقطرف من بعيد يعلم أصول الحكاية أكثر من هو بداخلها...

أتعلَم من أنا كنت قبل البدء... ستصدمك جميع الصور ، لذلك الصورة المنقسمة من وجه الغراب كانت تحدد مسار مارسين من الحكاية ، فمن قصت وجهها الأول الذي كان يحوم فوق الغراب ، وربما الثعابين التي لا نعلم عنها شيئًا فيطير الغراب ريشه في المطر ، ليكتب ما تبقى من مصير النصف الأول من لوحة المصير مثلث متساوي الأضلاع ، فينسكب في منتصفه صورة متوحدة لثلاثة فروض مع المطر.

وضع الإله قطعة كبيرة من الطين كانت تكفي لأن يخلق بها ثلاثة ، لكن فعلة الإله أعمق بكثير.

رغم أنهم يقدرون على فعل الأشياء مرة واحدة ، فإنهم لا يملأون الأرض بشيء واحد مرةً واحدة ، كان يطعمون الأرض بجميع الأشياء؛ حتى المخلوقات...

الوجه الأول "س" ، كيف لأول قطعة من الخليقة المتوحدة أن ترضى عن فرض قامَتِها دون اكتمالها بما تبقى منها؟ فهل الإله يعلم كل هذا الشتات ؟! كانت لا ترضي العالم ، فألقت بنفسها في أرض الغرب ، وكأنها ولدت لتجرب

الموت من أجل الموت ، الموت من أجل البداية "الموت فن ككل شيء آخر" ، كانت تضع ثقلها في تجربته مثلنا تمامًا عندما نجرب الأشياء لأول مرة ، فننبهر بها وتعجبنا فتظل نجربها أكثر حتى الموت ، وهكذا هي جربت الموت كي تصل لما تبقى من الطين، حتى وصلت لما تبقى من الموت...

يحبق الوجه الثاني من الموت "ر" ، عندما تعتم السماء لتفعل النجوم معاصيها وتنجب الأقمار... بعيدة عن الموت قريبة من السماء ، "هكذا فعلت بنا القطع الصغيرة" ، طموحك في الحياة دائمًا يجعلك تقدم إلى الموت وهكذا هي فعلت ، ترجو الحياة فتعلق الموت على أشجارها ، كانت تجمع بين السين والراء كأنها المدد الأخير لاستكمال الحكاية ، كانت تبحث عن قطعها المتناثرة بين لوحات الشرق والغرب ، لتنجب قبل موتها وجه مارسين ، ومن قبل تكتب إهداءً لقطعتها الأولى "س" إلى العزيزة سيلفيا :

بالفعل كنّا نقطن قطعة طين واحدة نستكمل الحكايات لنبقى معًا دائمًا ، أشكرك على طموحك في الموت الذي

جعلني أطمح في الحياة ، فشكرًا لقطع الطين عندما تبتعد لتنجذب، وتكتمل الصور فيكتمل وجه مارسين.

◈ ◈ ◈

رحيل

لا أعلم كيف أؤذيك مرتين، لكن الحكايات تبدو كأفعال الأرض والسماء، كعلاقة الشيء بما يقابله، ربما كانت الأرض بحاجة إلى روح فدمعت السماء من أجلها، فانبثقت الروح في الأرض من جديد، فعزفت السُّحب سيمفونية الرياح وتراقص التراب في الأرض من جديد!

كنتُ طفلة متشابكة مثل هذا التشابك الغريب، لا أعلم من أين تأتي الأشياء لتنتهي كأساور فضة متعلقة بظلمة الليل، أصف النهار بالنور البعيد والليل بلمبة صغيرة، يدقق بها نظري خوفًا من العتمة أن تأتي... أما هو فتركته هناك، ربما داخل قفص السماء الصغير، أو حتى تحت قطب الأرض، يستمع إلى مقطوعة عزف من نوع خاص، لكني لا أتذكر أين تركته... قبل أن أتركه طلب مني الانتظار معه وكأنه يحبني، لكني كنت أكره المشاركة، أكره أن يشاركني

أحد ما وراء اسمي... أو حتى أن يكون هناك تفاصيل صغيرة بيني وبينه، ربما لو كنتُ دقَّقت بأنفه لأصبح مثل أنفي تمامًا، ووجهه وفمه وكل شيء سيُصبِح مثلي، أو حتى نتشابه في فصيلة دم واحدة، أو يضيق القدر بي وبه ونوضع في غرفة نوم واحدة...

تركته هناك... وعدته أني سأعود إليه عندما أنتهي من أفعالي!، ولكن أي أفعال أقوم بها لأعود إلى حيث لا أعلم؟ كيف أكون قاسيًا وأنا طفل لا يتجاوز من كونه تسعة عشر شهرًا في السماء أو الأرض، لا أعلم أين يوضع رحم أمي في شهور حملها التسعة... أظن أنه يفرُّ من جسدها ويقطن شيئًا من الاثنين: الأرض أو السماء... يذهب حيث يكون الإله... كانت أمي تقول إن الإله دومًا يقطن السماء، فتنشق روحي بجسدها وأسخر من حديثها لأقول بصوتٍ لا يفهمه إلا بعض من الدماء اللزجة وأجهزة أنثوية متآكلة: "إن الإله ينشق جسده في السماء وروحه تراقب ما لا أعلمه على الأرض".

ولكن كيف لا يعلم الإله خباياي الضيقة ويصلح منها قبل أن تتسع ؟! كيف يتركني أفعل بأخي ما فعلت دون أن يستوقفني؟... ربما لا يعلم شيئًا عما فعلته، لكن أنا أيضًا لا أعلم أين رحم أمي لأصلح ما فعلته بأخي لآتي به إلى هنا، لا أعلم هل أبحث عنه في الأرض أم أصعد وأنتظره في السماء؟

صرخت أمي، فعدتُ من حلمي مرة ثانية، ليقول لي أخي إن أمي ستنجب طفلاً جديدًا الآن... فأرحل لأترك له مساحة على الأرض.

نصف لقاء

كرغيف خبز مات من شدة الحرارة ، وأصبح لا قيمة له سوى الحياة وسط بعض من الأرغفة العفنة التي تركها الزمن ما بين الحياة والموت ، تركها كي تتعفن فقط ، لا شيء أكثر من ذلك... هكذا أنا وأنت ، كان اللقاء بيننا منذ اللحظة الأولى مبهمًا يجعلنا نتسرب من أنفسنا لنسكب في كوب واحد لا نشربه، ولا يستطيع أحد غيرنا أن يمسك به ، فنفترق وأدافع عنك كشعب بأكمله ، شعب يقيم ثورة من أجل أرضه ، يسكب الدماء ويقتني الأسلحة ، يضحي برجال ويُيّتم أطفالا ويكسر قلوب فتيات...

وهكذا أنا وأنت... ارتطمنا بالأرض ، لأكون ثورة ، وأنت... أنت كنت الأرض ، محراب هواء يدافع عن ثقب صغير ليرتوي بالمياه... حاربتُ من أجلك كي تضيء كالقمر ، لكنه كان معتمًا... أو أصبح على عينيك كنهار

الشمس، ولكن حتى الشمس لم تشرق... وكأن القدر قام بعملية إرهابية ضد ثوريتي، أخذ القدر أرضي منذ أول لقاء، لا أعلم لماذا جعلني أرتطم بك أو أسكب نفسي بداخلك مرةً واحدة، لأصبح على نهار معتم وليل مظلم...

كيف تكون النهايات في منتصف اللقاء، لقاء استحوذ عليه الزمن ليصبح كرغيف عيش احترق دون لهب! فهل تنتهي اللقاءات من قبل البداية؟!.

مجازات في الحب

في كُلِّ ليلٍ أُدخِّن سيجاريتي... عندما يغفل الجميع عني أضع أمامي علبة السجائر الفاخرة وولاعتي وأغلق أبواب غرفتي بشكل محكم ، وأدخِّن سيجارة واحدة ، كانت تكفي لاستلطاف يوم جديد واستقباله، أو تحمل ما حدث في اليوم ذاته لأخذه كعمليات شهيق وزفير متبادلة بين سيجاريتي ، لآتي بما حدث وما سيحدث إلى العدم كدخان سيجارة من نوع فاخر لا أعلم كيف أُخبئها من الجميع ، أظنهم قبل أن يعاقبونني على أنني أدخن التبغ ويتحدثون عن صحتي والأشياء التي لا علاقة لها بالحقيقة كانوا سيتحدثون من أين جلبت ثمن مثل هذه العلبة الفاخرة ، حتى ولاعتي الفضية التي امتلكتها كآثار خاصة من إحدى محلات الفضة الفاخرة من منتصف المدينة بستمائة جنيهًا... لا أبخل عما يضعني كل ليل أمامك... أسرد جُملاً لا علاقة لها بالجُمل السابقة

ولا الآتية، ربما كان الحب مجازها الأول والأخير... أتذكر أني كتبتُ ذات مرة أن الحب لا داعي له في وطننا هذا، زمننا هذا، لا داعي أن نفني ثقتنا بأنفسنا في الآخرين ككوب منبوذ بثُقب؛ ثُقب يُسرِّب كل ما قمت بتعبئته في الفراغ حتى تبقى في العدم وحدك دون أحد دون شيء أكثر من كوب فارغ! الكوب الفارغ يذكرني بجسدي الآن... لماذا لا يسجِّل كل مزاجاتي الخاصة من لفافات تبغي حتى أحصل في يوم على أنفاس كاملة أفضل من الأنفاس المتقطعة المليئة بالثقوب؟

كلما نظرتُ للأوراق والجُمل تذكرتُ سيجارتي، تذكرتُ أن كل ما مرَّ بعقلي كان محشوًّا في سيجارتي الفاخرة فأصبحتُ أحنُّ لمجازات الحب المختلفة غالية الثمن أيضًا فكيف لقشة مثلي أن تصنع من الحب نوعًا من التبغ تستطيع لفافته لتدخنه كل ليل ليصبح الحب أصولاً أخرى من الشهيق والزفير...

أظن أن الفيلة أيضًا لا يستطيعون تناول الحب كما أتخيله

أنا... ولا علاقة لجسدي النحيف بهذه الأمور الساذجة.

لا داعي للحديث كثيرًا... اليوم لدي لفافة خاصة... لفافة من الحشيش سأدخنها فقط كي أعلم كيف أتناول الكتابة عن الحب مع لفافات الحشيش... أظن أن الحب يعجبه تقلب مزاجاتي كثيرًا وكتاباتي عنه أيضًا كل الأوراق كانت تتراقص من أجلي في كل مزاجاتي ، كثيرًا ما أكتب بعد كأس من الفودكا التي أسربها إلى البيت في الخفاء ، وكثيرًا بعد بكاء يجلبه لي ما تفعله معي زجاجة الاستلا التي تفعل بخلايا مُخي كل الذكريات الكئيبة عن الحب فأقسو عليه ، وكثيرًا ما أكتب عنه بعد صلاتي في الليل في الخفية أيضًا ، لا أعلم لماذا كنت أفعل كل شيء في الخفاء...

لكني الآن سأدخن الحشيش من أجل كتابات جديدة لا أبلغ بها أحدًا!

◈ ◈ ◈

ثلاثة فصول و وردة

ما زلت أقدم على الرحيل، يأتي الصيف ويقتحمني الشتاء ويطعنني الخريف ولا يأتي الربيع أبدًا. كنتُ ألوذُ بنفسي في الشوارع المقاهي كما هي... رجالٌ ملَّتْ الكراسي من جلستهم فوقها، حفظت أشكالهم وطلباتهم أيضًا، أظن أنها لو كانت تمتلك ألسنة لكانت نطقت عنهم وقالت : أريد قهوة زيادة أو ما شابه بالطلبات المعتادة لكل الجالسين.

كل صيف أمُرُّ من أمام هذه المقاهي، أقول إني لن أمرَّ ثانيةً، وتحدثُ نفس العلة مع الشتاء والخريف أيضًا... أمَّا الربيع فكنت أقضيه خلف أسوار الحديقة، كنتُ أحب أشكال الورود وهي تتفتح... لم أمر من أمام القهوة في فصل الربيع سوى مرة واحدة منذ أربعة أعوام... كانت تجلس شاحبة بجوار رجل، ملامحها كانت تجذبني، أظنها كانت تقنعه بشيء ما وفي عينيها ما يدل على أنها ستموت شوقًا من

أجل طلبها، أما الرجل فربما تعبيرات وجهه تدلُّ على أنه لم يكن يسمعها من الأصل... كانت ملابسها متألقة، كفتاة ثرية تقتني كل ملابسها من بلاد أخرى غير بلادها... علمتُ وقتها أني سأرحل، سأرحل في فصل الربيع.

جررتُ قدمي وجلست على المقهى بمقابلها أتتبع تعبيرات وجهها وأدقق بملابسها... لم يمر من الوقت أكثر من خمس دقائق حتى علا صوت الرجل ورحل عنها، وصرخت هي وارتمت على الأرض... وفي أقل من رُبع ساعة انقلبت الأشياء رأسًا على عقب وخلت القهوة من كل من بها، وأتت عربة إسعاف بعد محاولة أصحاب القهوة إفاقتها، فيما ملَّت الكراسي من الوحدة المفاجأة والصمت الذي يسود المكان والطريق الممهد لكل شيء ولا يستطيع أحد إفاقتها... نزل رجل طويل القامة، أمسك بيدها وقال إنهم لا يستطيعون اصطحابها إلى المستشفى لأنها فقدت الحياة، وتركوها بالشارع كما كانت!... ركضتُ حينها، قبل أن أجلس كقطة خائفة على صغارها في رُكنٍ بعيدٍ حتى رأيتهم يأخذونها في شارع بعيد معتم... كنت أظن أن الظلام قام

بأكلها قبل كلاب الشوارع وتعفن جسدها الميت طوال هذه الأعوام... لم أنسها أبدًا ، لم أنسَ الرجل الذي تسبَّب في موتها... كثيرًا ما كنت أسال عما كان يدور بينهما وأصابها بسكتة قلبية أوقفت حياتها ، أو ما الذي كان لو ظلَّ الرجل أمامها كطيف ليل شاحب لا تستطيع أن تفعل به شيئًا ؟

والآن أمرُّ على المقهى بعد أربعة أعوام في فصل الربيع لأجدها بنفس ملابسها ، لكن ملابسها تقطعت وشحبت كوجهها ، لربما كانت ملابسها تستر القليل من جسدها... ممسكة بيدها القليل من الورود ، وعلى وجهها ابتسامة شاحبة تمر على الكراسي وتقول : ورد... ورد ! حتى التفتت لتجدني وراء ظهرها ، فذهبت ابتسامتها لتقول : ور... ولا تكمل كلمتها ، لتركض من أمامي ، فتصدمها سيارة، لتموت وهي ممسكة بيدي، وتقول: أنا "وردة ربيع" بائعة الورد الميتة... فيموت الشارع مرةً ثانية.

◈ ◈ ◈

السماءُ تكتب اسمي

ظِلان معتمدان دائمًا على الاشتباك ، كفمٍّ رجلٍ عجوزٍ أجوف خشن الشفاه ، وسيجارة ناعمة تلوذ بين إصبعيه يشبكها في فمه كأنه امتلك مشبك الحياة العالق بين السماء والأرض... ارتطام جسده في وقتها كان لا يعني أي شيء من السخرية لكبر سنه وضخامة جسده المنسدل على المقعد دائمًا ، لكنه كان يعتاد كتابة الرسائل فوق أوراق السماء الصغيرة ، لا يهمه العناوين ، فكان يترك رسائله تتطاير مثل دخان السيجارة المنشبكة بشفاهه المجعدة كتجاويف الأرض على المقهى ، لا توجد وسائد ليميل رأسه المتدلي ويسنده يمينًا أو يسارًا ، لا توجد عناوين للمقاعد ، كلها كراسي بيضاء متشابهة في كل العلامات ولا أحد يعلم من الأسود الذي يأتي كل ليل ويضحك كل خمس دقائق دون جدوى لفعل الضحك ، ولا أحد يعلم أيضًا من الأشقر الذي يمضي

باسمًا مع الدقائق الأخرى... المارَّة لا يحسون الوقت الضائع في السير بين الطرقات من مقهى إلى آخر، كما هو لا يعلم ما الذي يضيعه كي يوصل رسائله بين السماء والأرض، يفترش كنعامة مع دخان سيجارته عندما يكتب رسالته الأولى "إن كنت أسمح بامتلاك بعض الوقت لإثارة الموتى فأنا أسمح بفيض أكبر من سحب غيوم الوقت من فوق وسادة الموتى".

كأنه يعد المقادير أبيض وأسود وضع في بداية طريقه المنسكب من بلاعات رسائله ليبدي بالموت سكراته الأولى "إن للموت لسكرات" بعد لحظة كسُكْر الحروف الملقاة عليه نزع السيجارة من فمه وكأنه ينْزع روح الموت من قلمه، فبدا يضحك مثل الأسمر ويحاكي الموت في الأوراق.

في داخل عمودي الفقري نخاع يوحي إلي بكل هذا الموت فلماذا النخاع فقط ؟ لماذا لا يدبِّر له العقل موته أو يستوقف نبضات قلبه في رسالة أخيرة وينسكب مع الموت كفنجان قهوة لوَّث بقية الرسائل. بدأ يبث نخاعه مع صوت

عقرب الساعة المتجه من يساره ويمزج الوقت مع عموده الفقري ليصل لما هو أبعد كأنه يعي شيئًا لا يعلمه أحد.

كل منا سِرٌّ؛ صغيرًا كان أو كبيرًا، لا يهم حجمه الأهم أنه لا يشتبه مع سر الآخر ، فلماذا لا يمزج الوقت مع قدميه كي يصل إلى السماء أسرع؟ ولماذا أيضًا لا يمزج الوقت مع قضيبه المنقبع تحت سرواله ليمزج السماء والأرض بنشوة خرافية تجعله يصل أسرع؟ ولماذا لا يجول بعقله في وقتها أن يبتر يديه اليمنى واليسرى ويلوح بهما مع الوقت ليتطايرا معًا إلى السماء؟.. كل هذا في ذلك الوقت المشئوم لا يهم أبدًا.

كان عجوزًا أجوف استأصل قدميه تحت عباءته البيضاء الواسعة مرة كي يكتب الرسائل عمدًا في مقعد لا يمكنه التخلي عنه ، كان يصيب دائمًا ، إننا نحتاج إلى الأشياء عندما نفقد الأخرى ، فَلَو لم نكن نفقد الشيء ما كنا لنحتاج إلى الآخر أبدًا.

بدأ يقطع من جسده ليكتب رسائله، حتى سقط المطر من السماء فتخلى عن رسائله وانشقت الأرض وذهب الكرسي برسائله إلى العدم وربما تصاعد كالأنفاس مع الأمطار الساقطة كي تكتب اسمه مرة أخرى مع السحب.

رجل الحكايات

كل صباح أختلق وجودك، وكل مساء ألعن هذا الوجود الذي لا يكون... في المساء أعلن امتلاكنا القليل من الأحلام التي يغتالها الوقت ينقش فوقها الفقد وينحتها كتماثيل الموتى، أتبرع بجسدي للعقارب لتلتهمني الأقمار، الثواني تدق، ما زلتُ أحلم... الدقائق تمرُّ، ما زلتُ أحلم. الساعات تكتمل فأفتقد القدرة على جذب الأحلام وأتقوقع خلف الجدران وأخبط برأسي عليها لأعلم جيدًا ما معنى الفقد، لأعلم من هم الغرباء، لأعي كم مرة أفقد المعنى الحقيقي للموت وأتبرع بعقلي لبعض الأفكار السلبية، فكم أحد مرَّ من أمام تلك المقبرة ليزرع صبارة صغيرة تغتالها الأحلام ويستنفدها الوقت ويدهشها الجنون فتموت وأموت خلف الأحلام وأتقوقع جوار بعض الجثث التي لم أرها أبدًا!

لكنه ما زال خلف الجدار يحكي الحكايات، لأمرَّ خلفه دون جدوى.

لا يوجد معنى حقيقي لسيرك ليلاً خلف صوت لا تعلم ماهيته، سوى أنه رجل لا يمتلك سوى الحكايات يأتيني بها في الليل وينفيها ويغتالها في النهار مثل كل البنايات.

كان يقصُّ حكاياته، فكل هذه البنايات العالية كانت تؤول إلى السقوط إذا فقدت أساسها فينحل البناء بالكامل وتهدم أو تهزم!

فرش حكايته فوق وسادتي البيضاء متلهفًا ومتشعبًا كشيطان تحطمة العقارب حول جهنم، وأنا يحطمني الوقت حول استماع حكاياته بإنصات... كنت أنتظر الأكاذيب رغم كرهي لها؛ مثلما أنتظر الوقت وأصمد له رغم كرهي أن يمر بين ليلة وضحاها.

فرش لي أخر الحكايات... قال الصبي المتشعب الأشعث الشعر: فقدتُ والدي منذ وقت قريب... صمدت لبدايته الاعتياد في الحكاية فكلنا يفقد من هو أقرب إليه... ثم قال:

وفي وقت أبعد فقدت صبية عانقتها عند النهر وتسربت مع الماء فلم أرَ منها قطرة حد هذه اللحظة... انخلع قلبي وأمسكتُ بمائي وربت فوق ظهره الخشن وقلتُ : لعلَّ الأخرى سوف تأتي.

بكى كثيرًا وقال: أحببتُ الأخرى وذهبت لتلبس خاتمًا أتى به الآخر وبقيت بمفردي مرةً أخرى.

بكيتُ بوقتها من أجل افتقاده جميع الأشياء، أحببت أن آتيه بما لا يخذله مرةً أخرى، فبكى وقال: كنتُ طفلاً سيئًا... وأنا كنتُ طفلةً مشاغبةً، فانجذبتُ نحو حكاياته، التزمتُ القصة كما نلتزم الموت، وهو استدرجني كالموت، فاض بكل الحكايات، اغتالني ذات مرة مثلما فعلت به الأولى، عانقني عند النهر وتسرب كالماء ولم أعد أرى منه قطرة واحدة... ظللتُ أبحث عنه كثيرًا، كنتُ أريد استكمال الحكاية، فكنتُ حبيبةً جيدة، وكان وطنًا سيئًا!... حتى جذبتني الجدران إلى الأرصفة المعقدة ففعل بى ما فعلته الأخرى، ألبسني خاتم الآخر رغمًا عني، كان يحب أن يمثِّل

حكاياته فوق المسرح جيدًا... فعل بالحياة مسرحًا صغيرًا، عرائس متحركة، وأنا البطل الوحيد، لكنه كان المحرك الوحيد الذي عندما يغيب أظل ثابتة وربما واقعة من جديد.

عاد مثل إحدى الحكايات: مسرح صغير، عروسة متطرفة، رجل لا يملك سوى العبث... ترك الكالوس وانسدل من مكانه ليمسك بها، عادلٌ هو في قضائه، جاء ليرشف الشهد من بين فمها كنحلة ويمسك بثديها كذئب افترسها ليشفق عليها مجددًا... وقف في ثبات ليشهد أمام الجمهور - وهي ساقطة - أننا جميعًا نرى قدسية الأشياء عندما ترحل وتتصاعد أنفاسها إلى السماء!

ابتلعها المسرح، فقتله الجمهور من قسوة المشهد... فعاد إلى جهنم ليكتب بقية الحكايات.

هكذا فعلت بي الوحدة

فى مشهده الأخير انطلق كرصاصة في قلب الحدث ، وانطوى في مقعد بجوار سريري المعبأ بالأتربة ، والثاني امتعض كجنين متشبث برحم أمه ، وجاء عاشقي الآخر ليلتصق بصدري كطفل فقد حنان الأم منذ أعوام كثيرة. قد تلفحوا بي كخرقة قديمة استحوذ عليها الزمن لتلقي بقذاراته جوار الأعتاب أشياء إباحية للكبار فقط.

غرفتي خالية ، ساكنة تمامًا ، معتمة ولا يمر بها أحد ، لكنهم يمرون بجوارها كثيرًا ، لا يوجد بها شيء سوى سريري القديم ومرآة مشروخة من عوامل زمنية لا أعلمها ، وأظن أنه لا يوجد أحد غيري يستطيع أن يعلمها أيضًا... جوار المرآة عدة أرفف لا تحتمل من الكتب أكثر من مائة كتاب ، اطلعتُ على بعضها ، وتركت البعض الآخر للزمن ليسرده علي بأفعاله قبل كلماته... جوار أرفف الكتب توجد ساعة

حائط باهتة، كلما مرَّ الوقت واتحد عقربا الثواني والدقائق واكتملت الساعات ؛ دقَّت في أذني وكأنها الموت يطرق الأبواب ليأتي، فكيف للموت أن يكون ساديًّا بهذا الحد؟ كيف يكون رحيمًا ليطرق الأبواب والوقت أيضًا؟

لكني علمت أنه الهذيان، فكل الدقات كانت تعي وجودهم معي في الغرفة، يتناثرون عليَّ، يقطعون أنفسهم كامرأة تهرول وتقطع عباءتها حزنًا لفقدان زوجها، أو كمشرط تآكل من الصدأ وتمنى لو يبيح له الزمن جثمانًا ليلوح الطبيب به في جسده ليسترد ذاته مرةً أخرى.

ومن خلف الأبواب ترفع أمي الستار، هي عجوز متآكلة مثل الزمن، تشبه بيتنا المُعتم بكل تفاصيله، وللحق هي لا تشبه أحدًا، هي فقط فصلت البيت بتفاصيلها فأصبح شكله كذلك؛ معتمًا، لا تعلم فيه الصباح من المساء. الحزن كان يشبه الفرح، الوجود كان يمثل الغياب ولا فارق بينهما أبدًا. فكانت تمر من خلف الأبواب على أنين صوتي، كانت تأتي على صوت امرأة تتأوه، ولا أعلم إن كنتُ

أتأوه من المتعة أم من رفضي إياهم. تفتح الأبواب وترفع حاجبيها ولا ترى ولا تسمع شيئًا سوى صوتي، فلا تسأل عن شيء وتتركني أستجير من اللا شيء وتغلق الباب وتذهب إلى فوضاها.

هذه المفارقات الباهتة جعلتني أُجنُّ، جعلتني مصابة بهوس لا يستطيع أحد أن يتفهمه. س ص ع، منذ أن فارقني الجميع جعلوني حياتهم وكأنهم لا يملكون شيئًا على الأرض غيري، في أول لقاء بيني وبين الأول كنتُ أتعجب مما رأيته، رفع الأغطية عن وجهي لأنظر إلى شخص، أقصد جنًّا، وربما يكون ملاكًا أيضًا، لا أعلم ما الذي يفرق الإنسان الطبيعي عن الجِن والملاك والشيطان؟ فكيف يكونون هم؟ لكني أظن أن ما صُدمت به لم يكن إنسانًا على الإطلاق، العينان الحمراوان، والجسد العريض دون قدم، والصوت الأجش والبشرة السوداء البهيمة. اقتحم سريري والتصق بجسدي، وكأننا شخص واحد ولا يفرق بيننا شيء. صرختُ وبكيت... لم ألمس شيئًا على الإطلاق، لكني أرى وأشعر بشيء داخل جسدي.

أتت أمي على أثر الصوت؛ ففرَّ... واستغرقتُ في نومي متهالكةً متآكلةً من التعب، ولا أعلم ما الذي كان أبدًا.

أيقظتني دقات الساعة من جديد لتعلن العقارب حربها الأخرى، فهناك ساعة أخرى قادمة... وجدته بجواري بين كتبي يفر بكتب الفسيولوجيا؛ كتب ربما لم أقترب منها أبدًا لكني جعلتها من مقتنيات مكتبتي، كنت أخشى التعرف عليها لكني كنت أمتلكها، وربما جاءني من بينها ليعلمني أنهم بجسدي قبل أن يكونوا في مكتبتي.

كان أحمق قاسيًا كعملية تزاوج بين طيور غير متحابة أو بقرة مع فراشة، فكيف تكون فعلته؟! فهل تستطيع البقرة أن تعلِّم الفراشة ؟! وكيف تفرُّ الفراشة لتحلِّق بعيدًا في عالمها الخاص ؟!... لكنه قبل أن يقتربُ مني فتحت أمي الباب مُنْزعجةً من صوت ارتطام الكتب بالأرض، ففرَّ دون أن أعلم كيف يرحلون...

بدأتُ أفكِّر في كيفية أن أكون مثلهم؛ أرحل حيث العدم وآتي حيث اللا وجود... فانفصل عقرب الدقائق من

الساعة ليأتي آخر لا يشبه الاثنين الآخرين، يعانقني ويرشف السُّم من بين شفتي، ويقترب الأبيض المجعد الشعر مبتور اليدين ليأخذ ما علمته في النهاية، أخذ شيئًا من بين فخذي بلون الدم، وتركني مرتجفةً أنظر خلفي لعقرب الدقائق والثوان، فكيف يتحدون مرةً ثانيةً.

أنظر لأُرفف مليئة بكُتب لم أطلع عليها، لأصطدم بنفسي في المرآة، وأنظر لقدم مليئة بالدماء، ولا أعلم كيف تكون الدماء، فألتصق بالجدران، وأجاور الأتربة، وأمتعض داخل نفسي وأصرخ ربما يعود أحدهم من جديد لتذهب غُربتي العارية معه، ويعلِّمني أصول الدماء وأنواعها أيضًا.

جررتُ قدمي وجلستُ أسفل الساعة ربما تعلن حربها لوجود دقائق وساعات أخرى. أسندتُ رأسي على الكُتب الملقاة على الأرض وغفوتُ، ربما يأتي أحدٌ ويعلِّمني شيئًا آخر.

◈ ◈ ◈

ثلاثة أوجه و شيطان و شجرة

مثل الفيض أو الإعصار يمرُّ من هنا كل يوم، ولا يستطيع أحد أن يستوقفه. يمرُّ بي كدوار، لكنه يهرب كدودة في ممرٍ معتم... وجدته ذات يوم يهرب جوار جذع شجرة أخضر اللون، أوراقها متساقطة، ولا دليل على أنها كانت تنبت ذات يوم، فاستقر هناك كأنه نباتها الأول، ومن هنا بدأت قصتي مع (بافلي) بشبه جزيرة (أيبيريا)... فتح باب المعبد اليهودي على اتساعه، أصبح مرسًى للأشجار أكثر من الأشخاص، كأنه نشأ لتُقيم به الأشجار عبادتها، فما كان يوجد بالجزيرة سوى قِلة من الأشخاص.

ارتمى بأحضان الجزيرة المغطاة بغصون أشجار هاجرتها أوراقها، وكأنه مثل الشجرة تمامًا طفل صغير، صاحب وجه مستدير وشفتين بلون وردي وشعر كستنائي ورموش تصل إلى حاجبيه وعينين رماديتين، هذا ما قد تحققت منه بوجهه، أما جسده فكان يشبه الأفعوان، حتى أمره الله أن

يبوق في الجزيرة، فأصبح يهوديًا بالفطرة ساخطًا على حاله، ففي عتمة يوم السبت وكل أهل الجزيرة يقيمون العبادات بالمعبد، كنتُ أمرُّ خلفه فشهدته في أخر فعلة حقيقية كان يعاتبها وكأنها السبب في اختيار اسمه ولونه وشكله، ولكن كل هذه الأشياء لم تكن تهمه على الإطلاق... كان يضع أصابعه الصغيرة في الأرض ممسكًا بجذر الشجرة يحثُّ به الأرض ويقول: (أنا قصصتُ على كل من هنا وهناك ما يحق لي في أن أكون مثلك أتلمس الأرض وأذهب إلى الفضاء فأنتِ أفضل بكثير، تقطنين الأرض وتعلمين موطنكِ الأصلي، فمهما ذهبتِ بعيدًا فأنتِ هنا مثبتة، لديكِ فروعٌ تسبح في الكون، وساقٌ يصلبكِ، وجذورٌ تثبتكِ، لا تفقدي شيئًا أبدًا، لا تحدِّثي أحدًا عن عُذريتكِ التي فقدتِها إثر عملية تلقيحك الأخيرة، أو عاداتكِ كأنثى وعاداتي كرجل. هذه أشياء لا تهمك على الإطلاق، فأنتِ مثبتة، لا يستطيع أحدٌ أن يفتك بكِ في الرحيل مثلي). ثم شدَّ جذر الشجرة وبكى واحمرَّت عيناه، ونظر إليَّ من بعيد، فأخذ وجهي الأبيض لون عينيه الأحمر، وثبت قدمي اليمنى في

الأرض كجذع شجرة أخضر، فلم يهدأ الطفل، ولكنه لم يعد طفلاً... في أقل من خمس دقائق أصبح وجهه يتجعد كالأرض، واتجه جهة اليسار ووضع يده الأخرى عند جذر الشجرة الثاني، وأخذ يرتِّل حديثًا آخرَ لم يعد يشبه الأول. قال لها: (هم بالمعبد وأنا هنا جوارك أقصُّ عليكِ حكاياتي كطفلٍ يقصُّ حكاياته على الملائكة. يقول الطفل إنه أحيانًا يطير مثل الملائكة، ولكن من قال لك إن الملاك يطير ؟! ويقول لك إنه يحدِّث العصافير والطيور والشجر، ويلهو مع النعام ويقيم علاقاته العاطفية مع السحاب، فيصبح وجهه أتمُّ من البدر، ولكني لم أعد طفلاً لأُحدِّث الملائكة. بوجهي المجعد سأقصُّ عليكِ حكاياتٍ لائقةً بي، فأمسك بالجذر جيدًا وقال له:

(استمع جيدًا إلى حكايا العجوز. هنا بهذه المنطقة كانت توجد طفلة صغيرة ترضع أمها ثلاث مرات كل يوم، وعجوز أنجبت طفلاً من جذع شجرة، وسماءً تولد أمطارًا، ونجومًا تصبح آلهةً، وشمسًا تصبح جهنم)... فنظر للجذر، وتعجب لصمته، وقال: (حقًّا كل هذا يحدث هنا وأكثر)

فالتوى الجذر عليه وأخذه من إصبعه إلى قاع الأرض ، فارتمى تحت أخر جذر بالشجرة، فقال:

(كنتُ يهوديًّا دون أن أعلم شيئًا آخر خارج جزيرتكم، لا أعلم شيئًا عن البشر ، فحدَّثتُ البحر المطلُّ على الجزيرة والنجوم المنيرة فوقي، والقمر عندما تأتيه ملامحي، ولم أثق بمن يقطنون في جزيرتكم لأقصَّ عليهم حكاياتي ، فكان يروقني الحديث معكِ كثيرًا... حدَّثت ما ظننتُه جميلاً ذات يوم ، كنت أعلم أنكِ غيرهم ، هم مثبتون بجذور كثيرة وفروعهم بها الكثير من الأوراق ، أما أنتِ فصلبة الجذور الثلاثة وفروعك بلا أوراق، فكنتِ تحملين الكثير من المعاني فحدَّثتُ جذوركِ... سألتُها في أول لقاء: كيف لا يستطيع الإنسان أن يختار لونه وديانته؟... فتحرَّكت جذوركِ حولي وكأنها تعلن الدوار الأخير وتنتهي دون أن أعلم شيئًا، ولم أعد أرى شيئًا يطلُّ من الأرض سوى ذيل قطة سوداء وشجرة بلا أوراق تعبث بكل شيء ليصبح قبيحًا مثلها وتنتهي من فعلتها لينتهي هو أيضًا).

◈ ◈ ◈

الفهرست

- نفد الوقت ٩
- بـــتـــر ١١
- ما يحق للفراشات ١٥
- نساء من العُملة ٢١
- ثلاث حكايات لطفلي الصغير ٢٥
- سيجارة برائحة الموتى ٢٩
- رسالة من الموت ٣٧
- الموت يعلنني إنسانة ٣٩
- منتصف القلب ٤٣
- أول طفلة للشيطان ٤٧
- عمَّا فعلتُه بي الدُّمية ٥١

- حين يُحبُّ الموتى ٥٥
- وجهان لـــ"مارسين" ٦١
- رحـــيـــل ٦٥
- نصف لقاء ٦٩
- مجازات في الحب ٧١
- ثلاثة فصول و وردة ٧٥
- السماءُ تكتب اسمي ٧٩
- رجـــل الحكايات ٨٣
- هكذا فعلت بي الوحدة ٨٧
- ثلاثة أوجه و شيطان و شجرة ٩٣

Tel :(+2) 01288890065

www.shams-group.net